الخطاب القرآني ودوره في نشر الوعي الإسلامي

د. سهام مادن

أستاذة محاضرة بكلية العلوم الإسلامية

- جامعة الجزائر-

المقدمة:

إن نزول القرآن الكريم بلسان عربيّ مبين هو الذي هيّأ للعربيّة أن تصبح لغة معتمدة، واستتبع ذلك وصفها وتقعيدها، ونشأت علوم العرب في ظلال القرآن لتكون دليلا للعرب وغير العرب، وقد تفطّن القدماء إلى قراءة النصّ القرآني بما تهيّأ لهم ن أدوات النظر فأصابوا كثيرا واكتشفوا أسرار الخطاب القرآني إمّا انطلاقا من علوم القرآن أو علم التفسير أو أصول الفقه أو إعراب القرآن أو علم اللغة أو علم البادية فانطلق هؤلاء الباحثون في استجلاء ظواهر تخصّ الخطاب القرآني كلّ من زاويته.

ثمّ ظهر في هذا الزمان جيل من الباحثين في العربيّة شكّلوا تيارا عظيما وهم امتداد لأسلافهم، إذ يقوم منهجهم على المزاوجة بين الدراسات اللغوية العربيّة القديمة

والدراسات اللغوية الحديثة التي يطلق عليها مصطلح" اللسانيات".

فانطلق هذا الركب الجديد في تحليل الخطاب القرآني معتمدا على آثار السلف ومضيفا بصمة علمية حديثة تمثّلت في لسانيات النص ومناهج تحليل الخطاب اللغوي.

سنتطرّق في مداخلتنا إلى تبيان دور الخطاب القرآني في نشر الوعي الإسلامي من منظور اللسانيات الحديثة، وقد حدّدنا لموضوعنا عناصر نوجزها فيما يلي:

-تحديد مفاهيم المصطلحات الأساسية: النصّ، الخطاب، السياق.

-تحليل الخطاب القرآني في ضوء نظريّة السياق معتمدين على نموذج والمتمثل في سورة البقرة.

تحديد مفاهيم المصطلحات:

احتلّت مصطلحات (النصّ) و(السياق) و(الخطاب) موقعا مركزيّا في الأبحاث والدراسات التي تندرج في مجالات:"تحليل الخطاب"،"لسانيات الخطاب" و"لسانيات النصّ"، و"نحو النصّ" وغيرها.

وعليه فإنّه يجدر بنا قبل الخوض في تحليل الخطاب القرآني توضيح مفاهيم هذه المصطلحات.

النصّ: تتعدد المعاني اللّغوية لمادّة (ن، ص، ص)، فهي تدلّ على الرفع بنوعية الحسيِّ والمجرّد، وتدلّ كذلك على أقصى الشيء وغايته، وعلى الاستقصاء أي الإحاطة، وهو متصّل بالمعنى السابق، ومنه نصّ الرجل نصّا إذا سأله عن شيء حتّى يستقصي كلّ ما عنده، ومن دلالتها كذلك الإظهار[1].

ويمثّل مصطلح (النصّ) إشكاليّة معقّدة وكبيرة في النقد الحديث، وذلك بسبب

تداخله مع عدد من المصطلحات الأخرى كالخطاب والأثر وغيرها، وقد حاول لسانيات فرسنيّان هما "روبير لافون" و"فرانسواز مادري" "R.Lafant et F.C.Madray" أن يتتّبعها هذا المصطلح منذ نشأته، واستعمالاته في العصور المختلفة، فتوقفا عند مختلف النظريات اللسانية أمثال فردينان دي سوسور وجاكبسون خاصّة فيما يتعلّق بحديثه عن علاقة النصّ بالتواصل[2].

وإذا حاولنا استخلاص أهمّ المقوّمات الجوهريّة لمصطلح النصّ لدى أولئك اللّسانيين واللغويّن عبر دراساتهم المختلفة، فالنصّ هو كلّ خطاب مثّبت بواسطة الكتابة[3].

إنّ تجلّي النصّ في مظهر كتابيّ يضعنا وجها لوجه أمام السمة اللّغوية للنصّ باعتبار الكتابة جزءا من النظام اللغوي، وقد أشار اللساني "جون لوي هودبين "J.L.Hoodbeen" إلى مفهوم النصّ وارتباطه بالكتابة[4].

وأمّا المقوّم الثاني للنصّ فهو ظهور المعنى، فيطلق النصّ على "ما به يظهر المعنى"[5]، ولظهور هذا المعنى آليات متعدّدة تختلف باختلاف الدارسين، ولا ينظر للحجم في تسمية الملفوظ نصّا، فكلّ ملفوظ مهما كان حجمه يمكن أن يعدّ نصّا إذا تركّب من سلسلة من الوحدات اللّغوية ذات الوظيفة الواضحة[6]، ومن هنا قد يكون النصّ جملة أو عدّة جمل، أو سلسلة متوالية من الجمل تقصر وتطول بحسب السياق، ومن هذا المنطلق يعرّف كلّ من هاليداي ورقيّة حسن النصّ كما يلي: "بأنّه وحدة لغويّة في طور الاستعمال"[7]، أي وحدة دلالية تحكمها وظيفة تواصلية.

والنصّ سلسلة من العلامات المنتظمة في نسق من العلاقات تنتج معنى كليّا

يحمل رسالة[8].

كما أنّ طريقة توالي الجمل المترابطة يحدّد إيقاع القراءة، وبذلك يدخل في تشكيل النصّ كتقسيمه إلى فقرات وفصول وصفحات، وإنّ اختيار الكاتب لجنس أدبيّ ما أو لاتجاه فنيّ هو اختيار للغة التبليغ التي ينوي الاتّصال بقارئه من خلالها، وهذا يمثّل المقوّم الثالث الذي نطلق عليه مصطلح شكل النصّ"، وقد تطّرق اللساني المغربي محمّد الماكري إلى أثر هذا الشكل في بناء النصّ وتحليله في دراسته (الشكل والخطاب)[9].

ولقد عرّف الدكتور عبد الملك مرتاض النصّ قائلا:" النصّ شكل مغلق له بداية ونهاية"[10].

إنّ تماسك النصّ وترابطه عنصر آخر من العناصر البارزة التي يقوم عليها مفهوم النصّ، ويقصد بهما توافر مجموعة من العلاقات التي تساعد على ربط أجزاء النصّ بعضها ببعض عن طريق الروابط النحويّة، كالضمائر وأدوات العطف، والروابط الزمنيّة، والدلاليّة كالترتيب المنطقي والتكرار والحذف.

من المقوّمات الأخرى الانسجام أو الاتّساق بين النصّ والسياقات التي يظهر فيها، فالنصّ يتّسق مع سياق ثقافيّ عامّ يتصّل بالتاريخ والقانون والدين والأدب، ولذلك تقترح كريستيفا دراسة الأشكال النصيّة ضمن منظومة الثقافة والتاريخ التي يتشكّل منها وفيها لنصّ[11]، كما ينسجم مع سياق آخر يمكن أن نطلق عليه مصطلح "المقام" الذي عرّفه جون لاينز قائلا:" يشتمل المقام على مجموعة الظروف والملابسات التي اكتنفت كتابة النصّ، وتقاس درجة التماسك والترابط في ذلك النصّ بالنسبة إلى

السياق الذي يظهر فيه...[12]

كما يفترض لايتر نوعا من الانسجام أسماه"الانسجام الدلالي"، ويقصد به أن تكون المكوّنات الدلاليّة والعناصر المعجميّة في النصّ مولّدة ضمن توافق نحويّ معيّن[13].

واستعمل باحثون آخرون مصطلح"التشاكل" بدلا من مصطلح الانسجام، وقد استفاد الدكتور محمد مفتاح[14] من مفهوم التشاكل لدى اللّغويين وحلّل في ضوئه قصيدة كاملة توقف فيها عند التشاكل الصوتي والتركيبيّ والدلالي وربط ذلك كلّه بالقواعد التداوليّة.

ويذكر بيوجراند ودرسلر أنّ التواصل يربط بين خصائص النصّ المختلفة والقارئ[15]، بل إنّ آخرين يتجاوزون ذلك إلى القول إنّ"النصّ عملية يخلقها القارئ"[16].

ويشرح رولان بارت آلية التواصل بين عناصر النصّ قائلا:" إنّ النصّ هو ذلك الشيء الذي يتحقّق لدى القارئ من تفاعله بالعلامات التي يتألّف منها المنطوق الإبداعي"[17].

وبذا يصبح القارئ جزءا لا يتجزأ من تعريف النصّ عند بارت، وذهب اللسانيون إلى نظرية تطبيقية لعملية التواصل وقالوا أنّ كلّ حدث لغويّ يتضّمن رسالة وأربعة عناصر مرتبطة بها هي: المرسِل، والمتلّقي، ومحتوى الرسالة، والكود أو الشيفرة المستعملة فيها[18]، وهذه العناصر تعمل متماسكة متآلفة فيما بينها.

أمّا المقوّم الأخير فهو "جامع النص" وهو من مصطلحات الناقد جيرار جينت[19]

.G.Genette

ويفترض كثير ممن الدارسين إلى وجود بنية نصيّة كبرى يغترف الكاتب منها، ويعود إليها، ويتصارع معها، ففي لا وعيه تمثّل هذه البنية الكبرى (جامع النصّ) مزيجا من آلاف النصوص المتداخلة، ويوظّفها الكاتب في سعيه إلى إنتاج الدلالة وفقا لعلاقة معيّنة بين كاتب وقارئ في إطار ثقافيّ واجتماعيّ مجدّد[20]، ويطلق عليها بعض الدارسين مصطلح "المتعاليات النصيّة، ويمكن من خلالها فهم ألوان عديدة من التناص[21].

نستشف ممّا تقدّم ذكره أنّ النصّ هو كلّ كلام متصّل ذو وحدة جليّة تنطوي على بداية ونهاية، ويتّسم بالتماسك والترابط، ويتّسق مع سياق ثقافي عام أنتج فيه، وينسجم مع سياق خاصّ أو مقام يتعلّق بالعلاقات القائمة بين القارئ والواقع من خلال اللّغة، وبين بداية النصّ وخاتمته مراحل من النموّ القائم على التفاعل الداخليّ، وهذا التفاعل يؤدّي إلى تواصل منسجم بين منتج النصّ ومتلّقيه.

- الخطاب:

الخطاب أحد مصدري فعل (خاطب) يخاطب مخاطبة وخِطابا، وهو يدلّ على توجيه الكلام لمن يفهم[22] ويعرّفه ابن منظور قائلا: " الخطاب مراجعة الكلام "[23].

وتعرّفه المعاجم الحديثة مثل محمد علي الخولي فيما يلي: " إيصال المعنى إلى السامع عن طريق الكلام "[24] ، وعرّفه إبراهيم فتحي قائلا "الخطاب تتسلسل فيه الكلمات وتترتب "[25] ، وعرّفه رمزي البعليكي قائلا: " الخطاب قد يكون شفويّا أو تحريريّا ويعالج موضوعا بشيء من التفصيل[26].

وأشار الأصوليّون إلى تطّور مصطلح الخطاب، فهو في مجالهم يدلّ على ما

خوطب به وهو الكلام "[27]، ويضيف الكفوري في (كلّياته) عنصرا جديدا وهو الجانب النفسي فيقول: " إنّ الكلام اللفظي أو النفسي الموجّه نحو الغير للإفهام"، وهو تعريف موافق لتعريف الغزالي في المستصفى[28].

كما أضافت الدراسات اللغوية الحديثة[29]عناصر للخطاب، ففيرث Firth عالم اللغة البريطاني في العصر الحديث يركّز على وظيفة الخطاب باعتبارها عملية اتّصال تتمّ في إطارين: الإطار اللّغوي وهو عبارة عن جمل مكتوبة أو منطوقة ينتجها مرسل واحد أو عدّة متخاطبين كما يحدث في الحوار أو غيره، وإطار غير لغوي يشمل العادات والأعراف والتقاليد والأخلاق وهو ما أطلق عليه مصطلح (إثنوجرافيا الخطاب)، والخطاب باعتباره حدثا كلاميّا يتألّف من عدّة عناصر هي: المرسل، والمستقبل أو الجمهور، والرسالة أو الموضوع، والهدف.

ويربط بعض علماء اللّغة هدف الخطاب بالأثر الذي تحدثه وسيلة الاتّصال بين المرسل والمتلّقي، وقد عبروا عن هذه الوسيلة باستخدام كلمة قناة (Channel)، والقنوات المتاحة لمنتج الخطاب كثيرة[30].

ويتداخل مفهوما النصّ والخطاب تداخلا كبيرا لدرجة يصعب معها أحيانا التمييز بنيهما، ممّا دفع بمحرّري المعجم الموسوعي للسيميائيّة، إلى معالجة المفهومين في فقرة مشتركة[31]، وفي مجال السرديّات يستخدم مصطلح (النصّ) غالبا مقابلا لمصطلح (الخطاب) كما هو الحال في دراسات جنين وتودوروف (Todorov)
وفاينريش ([32] (H.Weinrich).

ونجد أنّ (فان ديك) يقدّم تمييز أكثر تحديدا فهو ينظم إلى النصّ بوصفه بنية

عميقة بينما يمثّل الخطاب بنية سطحيّة، أو ينظر إليهما بوصفهما مظهرين: المظهر التجريدي والمظهر الحسيّ، والنصّ مظهر تجريدي، بينما الخطاب يجسّد وحدة لسانيّة تتجلّى في ملفوظ لغويّ[33] .

فالنصّ وحدة مجرّدة لا تتجسّد إلاّ من خلال الخطاب كفعل تواصليّ.

ومن خلال الدراسات المختلفة يتبيّن لنا أنّ الخطاب كلمة تستخدم للدلالة على كلّ كلام متصّل اتّصالا يمكّنه من أن ينقل رسالة كلاميّة من المتكلّم أو الكاتب، وليس كلّ خطاب نصّا وإن كان كلّ نصّ بالضرورة خطابا، فالكلام المتصِّل خطاب، ولكنّه لا يكون نصّا إلاّ إذا اكتمل ببداية ونهاية وعبّر عن موضوعه ببناء متماسك منسجم.

وأمّا تحليل الخطاب فيعني تكوين الفروض التي تتعلّق بالمخاطِب، والمخاطَب، وروابط الخطاب، ودرجة اتّصاله، وتماسك الأبنية المكوّنة له، كما يتطّلب تجريدا للمعلومات المتصّلة باختيار الألفاظ والتراكيب والمعلومات المكوّنة للخطاب، وتحوّلات الزمن والدلالات فيه.

إنه لا يمكننا أن ندرس النصّ والخطاب بمعزل عن السياق كما أشرنا سابقا، ولهذا فستنطرق الآن إلى تحديد مفهوم السياق.

السياق: ورد في لسان العرب لابن منظور: "ساق الإبل يسوقها سوقا أو سياقا، وتساوقت الإبل أي تتابعت"[34] وفي أساس البلاغة عرّفه الزمخشري، "فلان يسوق الحديث أحسن سياق، وهذا الكلام مساقه إلى كذا"[35] .

وقد تكون كتب التفسير وكتب الأصول من أوائل الكتب التي تبلور فيها معنى

السياق كمصطلح، كما نجد ذلك في الرسالة للإمام الشافعي[36] (ت204هـ)، وتطلق لفظة (السياق) في عرّف المفسرين على الكلام الذي خرج مخرجا واحدا، واشتمل على غرض واحد هو المقصود الأصلي للمتكلّم، وانتظمت أجزاؤه في نسق واحد، وقد تدلّ على السياق ألفاظ أخرى، كالمقام ومقتضى الحال والتآليف، وغيرها.

وتعرّف المعاجم الحديثة (السياق) بأنه" بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه"[37] ويعرّفه آخرون بأنه" علاقة البناء الكلي للنص بأي جزء من أجزائه[38]، وتؤكد هذه المعاجم الحديثة في تضافر سياقات عديدة في النص تساهم في صياغة الرسالة اللغوية، وهي السياقات النحوية، والبلاغية، والصوتية.

وقد اهتمّ النقاد والدلاليون واللسانيون والأسلوبيون بالسياق من وجهات مختلفة، فدرس أوستن استخراج السياق من خلال البنى المختلفة للرسالة اللغوية[39]، واهتمّ علماء الدلالة بالمعنى السياقي، أمثال جون لايتر[40] وفيرث[41]

يمثّل السياق ركنا أساسيا في فهم الرسالة اللغوية، ويأتي السياق في نوعين: السياق اللغوي، والسياق الحالي، والأول يرتبط بمعنى الكلمة في إطار الحديث أو النص، والثاني سياق الحال أو المقام الذي يزيل اللبس والغموض عن الجمل والنصوص لأنه يمثل مجموعة من العوامل البيئية والاجتماعية والنفسية، ويعبّر"غراها هو" عن هذا المعنى بقوله:" إن قراءة القصيدة خارج سياقها لا تعد قراءة أبدا"[42] .

إن الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها الكلام عبر أنظمة اللغة لا يمكن دراستها بمعزل عن السياق الذي حصل فيه فعل الكلام، وهو ما عبّر عنه علماء البلاغة بقوله:" لكل مقام مقال"، كما إن دراسة التشكيل الكلامي ومكوّناته من الداخل ستوصلنا

إلى تفسير النظام اللغوي.

ويعرّف النصّ بأنه كل كلام متصّل ذو وحدة جلية تنطوي على بداية ونهاية وتتسّم بالتماسك والترابط، ويتّسق مع سياق ثقافي عام أنتج فيه، وينسجم مع سياق خاص أو مقام، يتعلق بالعلاقات القائمة بين القارئ والواقع من خلال اللغة وبين بداية النص وخاتمته مراحل من النمو القائم على التكامل الداخلي، وتوافر العناصر السابقة وتفاعلها يؤدي بالنص إلى إحداث وظيفته التي تتمثل في خلق التواصل بين منتج النص ومتلّقيه.

يستخدم مصطلح الخطاب للدلالة على كلّ كلام متّصل اتّصالا يمكنه أن ينقل رسالة كلامية من المتكلّم أو الكاتب، والخطاب؛ والخطاب كالنصّ غير أنّ كلّ خطاب نصّا، وإن كان كل نصّ بالضرورة يشكّل خطابا، فالكلام المتصّل خطاب، ولكنّه لا يكون نصّا إذا اشتمل على بداية ونهاية، وعبّر عن موضوعه ببناء متماسك منسجم، ويعدّ السياق ركنا أساسيا في فهم الرسالة اللغوية.

موضوع الخطاب:

سنعتمد في تحليلنا على محورين أساسيّين:

المحور الآني: (Synchronique) الذي "يركّز في تحليله للظواهر على جملة علاقاتها وأبنيتها المتراكبة، وانتظامها في نسق متّصل"[43]، هذا المحور يرصد صورة وصفيّة للنصّ في لحظة محدّدة وفي سياق معين.

المحور العاقبي: (Diachronique) الذي" يعنى بتطّور الظواهر والنمّو في النصّ الأدبي"[44] المقصود منه دراسة النصّ باعتباره مؤثّرا في فترات زمانية متعاقبة.

وعلى هذين المحورين سنبني تحليلنا: هذه السورة من أوائل ما نزل من السور بعد الهجرة، تضمّ عدّة موضوعات، ولكنّ المحور الذي يجمعها كلّها محور واحد مزدوج، يترابط الخطّان الرئيسيان فيه ترابطا شديدا، فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسولها ﷺ، وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها، وسائر ما يتعلّق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القويّة بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى، وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة في أوّل نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله، وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقيّ لإبراهيم عليه السلام، وتبصير المسلمين وتحذيرهم من العثرات التي سبّبت تجريد بني اسرائيل من هذا الشرف العظيم، وكلّ موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج بخطيّه الرئيسيين[45].

أما مضمون السورة (داخل النصّ) فهي تمضي على محورها بخطيّة الرئيسيين إلى نهايتها، فبعد استعراض النماذج الثلاثة الأولى، المتّقين، والكافرين، والمنافقين، وبعد الإشارة الضمنية لليهود نجد دعوة الناس جميعا إلى عبادة الله والإيمان بالكتاب المنزّل على سيدنا محمد ، وتحدّي المرتابين أن يأتوا بسورة من مثله، وتهديد الكافرين بالنار وتبشير المؤمنين بالجنّة، ثم نجد التعجّب من أمر الذين يكفرون بالله في قوله تعالى:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [46].

وعند هذا المقطع الذي يشير إلى خلق ما في الأرض جميعا للناس تأتي قصة استخلاف آدم في الأرض في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾[47].

وتمضي القصّة تصف المعركة الخالدة بين آدم والشيطان حتى تنتهي بعهد الاستخلاف وهو عهد الإيمان قال تعالى: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[48].

ثمّ بعد هذا يبدأ السياق الذي يتناول بني إسرائيل ودعوتهم في دين الله مع تذكيرهم بخطاياهم، ويستغرق هذا الأمر الجزء الأوّل من السورة، لتبيّن لنا حقيقة بني إسرائيل.

وإذا تأمّلنا هذا السياق كيف تمّ الانتقال من الحديث عن بني إسرائيل إلى الأمة المؤمنة ليضع لها دستور حياتها الجديدة، وبدأ السياق بالحديث عن قيام المجتمع المسلم والدولة المسلمة بعد ثلاثة عشر عاما من الاضطهاد، ويظهر ذلك في الآيات من (42 إلى 123) تقريبا لينتهي الحديث بإنذار قال تعالى: ﴿**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنّي فضلتكم على العالمين، واتّقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون**﴾.

إنّ النّص في سورة البقرة متماسك في موضوعه، منسجم في سياقه، فهو نسيج متّصل، فكلمة نصّ في علم لسانيات الخطاب" توحي بنيويّا ودلاليّا، وتتمثّل في هذا النسيج، أو هذه المتوالية عناصر الاستمرار والانسجام"[50].

فهذا النصّ والمتمثّل في سورة البقرة يحمل رسالة متماسكة بخيط موضوعيّ واحد من الآية الأولى إلى الآية النهائية، ومن الجدير بالذكر أنّ السورة قد ركّزت على إنشاء الجماعة المسلمة التي تقيم شرع الله في كلّ ميادين الحياة، في الاقتصاد، والاجتماع، وفي ميدان الأسرة، وفي الجهاد...، وضمن منهجية محكمة تنتهي السورة ليتبيّن لنا إيمان الأمّة المسلمة بالأنبياء كلّهم، وبالكتب كلّها، وبالغيب وما وراءه، في قوله تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِير**﴾[51].

قال سيد قطب: "ومن ثمّ يتناسق البدء والختام، وتتجمع موضوعات السورة بين صفتين من صفات المؤمنين وخصائص الإيمان"[52].

عنوان النصّ في نظرية السّياق:

ورد أن تسمية سورة القرآن هو توقيف من الله تعالى[53]، وذهب الزركشي إلى القول أنّ تسمية السورة باسم معيّن ليس إلاّ تعضيدا لتقليد معلوم لدى العرب، وهو تقليد يراعي في كثير من المسميّات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصّه، ويسمّون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بماهو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز"[54].

ويرى (براون ويول) أنّ العنوان يمثّل هدف النصّ وغرضه[55]، ويرى الدكتور صلاح فضل[56]، محاولا الاستفادة من هذه الدراسات المختلفة أنّ العنوان جزء من عنوان السورة، بل هو جزء مكثّف منه، و(البقرة) تصلح أن تكون رمزا مكثّفا، محوريّا لصنيع بني إسرائيل وموقفهم من الرسالة الجديدة، وهو موضوع رئيسي، واختيار هذا

العنوان تنبيه للقارئ إلى محور رئيسي من موضوعات السورة، وهو لفت لأنظار المؤمنين في زمن النص وفي كل آن إلى أن طبائع أولئك اليهود غير قابلة للتبدّل لا قديما (في زمن قصّة البقرة) ولا في عهد سيّدنا محمد ﷺ (زمن نزول النصّ)، ولا في أي زمن من الأزمان، وبهذا تجتمع في العنوان مفاتيح عدّة عناصر الموقف الكلامي جميعا (المخاطب)، سبحانه الذي جعل العنوان توقيفا منه سبحانه، و(المخاطب) أو المتلّقي، و(الموضوع) أو الرسالة.

النصّ والمتلّقي المخاطبون:

افتتحت السورة بحروف متقّطعة تلتها لفظة (كذلك) قال المفسّرون هي إشارة لما في سورة الفاتحة حيث سألوا اله الهدى في قوله تعالى: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾[57]، جاء الجواب أنّ الهدي للصراط المستقيم هو في ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه، هذا الكتاب منزّل من عند الله، إنّه يخاطب المؤمنين مباشرة بعد أن تميّزوا عن الكفّار في مجتمعهم الجديد القائم بذاته، وصار الكلام والتوجيه لهم خاصّته، وإن كان يحدّثهم في السورة عن المشركين والمنافقين واليهود والنصارى ولكنّه يحدّثهم ليعلّمهم ويعرّفهم بأحوال هذه الفئات ومواقفها، لا ليجادلها جدلا مفصّلا في صحة الوحي والكتاب، وبعد هذه الحقيقة الموجزة يمضي السياق إلى تقرير سمات المتّقين وهو تقرير وتوجيه في الوقت ذاته[58] في قوله عزوجل: ﴿ **الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** ﴾[59] .

وبعد هذا الاستفتاح الذي حدّد سمات المؤمنين يتحدّث عن غير المؤمنين، والتقسيم الغالب في القرآن هو تقسيم الناس إلى مؤمنين وكافرين، أمّا الفئة الثالثة وهم

المنافقون فقد كانت صورة جديدة على المؤمنين، ومن ذلك قوله عزوجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾(60).

إن سورة البقرة جاءت لتركّز على إعداد الجماعة المسلمة لحمل الأمانة الكبرى أمانة العقيدة وأمانة الخلافة في الأرض، ولذلك فإنّ عملية التركيز هذه كانت ذات مسارين: المسار الأول يتعهّد الجماعة المسلمة بالدروس مباشرة في أخلاقها وأفعالها وأفكارها، والمسار الثاني يبصّرها بأعدائها المناهضين لها وفي مقدمتهم بنو إسرائيل ومواجهة دسائسهم وكيدهم وحربهم للعقيدة في أصولها، وللجماعة المسلمة في وجودها، كما تركز على التوجيهات الإلهية للجماعة المسلمة لمواجهة الحرب المتعدّدة الأساليب التي يشنّها عليها خصومها، وللحذر كذلك من مزالق الطريق التي وقع فيها بنو إسرائيل قبلها، والنصّ من خلال هذين المسارين تتبدى فيه العلائق الخارجية مع السياق، أي مراعاة النصّ لمقتضى الأحوال التي نزل بها وهي وجود الجماعة المسلمة في أول عهدها بالمدينة ومراعاة النصّ لمقتضى الحال، وعلاقات النصّ بالشرائع والعادات والأعراف السابقة وهذه العلائق ظهرت ظهورا واضحا من خلال هذا التقسيم الدقيق لفئات الناس ثمّ الحديث المطول عن المنافقين ثمّ الحديث المطول جدّا عن اليهود ثمّ المراوحة في الخطاب بين الجماعة المسلمة واليهود في زمانهم الغابر، ثمّ في معالجة قضايا آنية كانت مدار جدل في حياة الجماعة المسلمة.

وبعد ذلك يأتي ختام السورة الكبيرة في آيتين اثنتين ولكنّهما تمثّلان بذاتهما تلخيصا وافيا لأعظم قطاعات السورة يأتي الختام متناسقا مع موضوعات السورة وجوها وأهدافا، لقد بدأت السورة بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ

مَقْبُوضَة ﴾ [61]

وورد في ثناياها إشارات إلى هذه الحقيقة، وبخاصة حقيقة الإيمان بالرسل جميعا وهاهي ذي تختم بقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[62]

وكأنما هي تفصّل هنا كلمة الغيب الواردة في الافتتاح: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾[63] وهو ختام يتناسق مع البدء كأنّها دفنا كتاب كما قال سيّد قطب[64] ، وقد حوت السورة الكثير من التكاليف للأمة المسلمة وتشريعاتها في شتى شؤون الحياة، كما ورد فيها الكثير عن نكول بني إسرائيل عن تكاليفهم وتشريعاتهم، وفي ختامها يجيء هذا النص المفصح عن الحدّ الفاصل بين النهوش بالتكاليف والنكول عنها.

وفي ختام السورة يرد ذلك الدعاء الخاشع مع المؤمنين﴿ **ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربّنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الّذين من قبلنا ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا ورحمنا** ﴾ .

الخاتمة:

إنّ نظرية العلاقة بين النصّ والسياق قد امتدّت في مجالات عديدة مثل علوم القرآن، والتفسير، وأصول الفقه، وعلوم البلاغة، وعلوم اللغة والنحو، واتّصلت بحقول متنوّعة من الدرس، وقد ترك أعلامنا الأوائل إرثا كبيرا حول هذا الموضوع، جاء موّزعا عبر هذه الحقول، وكشفت ملاحظاتهم عن وعي كبير بدور المعطيات الاجتماعية

والثقافية في تحليل الرسالة اللغوية وفهمها، وتجاوز اللغويون العرب في رسم معالم النظام اللغوي حدود النص الذاتية إلى محيط الحدث الكلامية أو سياقه الخارجي، ونظروا في الاتّساق الداخلي للنصوص، والتماسك النصي في أشكاله المختلفة، وفيما يتصّل بالخطاب القرآني فقد رأينا أن حركة تحليل هذا الخطاب سارت في اتجاهين: الأول من خارج النص إلى داخله، أي من السياق الاجتماعي للنص إلى بنيته الداخلية، والثاني من داخل النص إلى خارجه، أي من خلال البحث عن السياق الاجتماعي داخل بنية النص، وظهرت هذه النظرات في مباحث أساسية تمثّلت في أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والقراءات وغيرها.

وقد تتّبع علماء القرآن والمفسّرون وعلماء الأصول والنحاة العلاقة بين نصّ القرآن وسياق كل حسب رؤيته، تعدّ سورة البقرة نموذجا جميلا إذا عالجت واقع المسلمين بعد الهجرة النبوية، فهي أول سورة نزلت بعد الهجرة، وموضوعها الرئيسيّ موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية وتربية الجماعة المسلمة الناشئة وتبصيرها وتحذيرها من العثرات.

الهوامش

1 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1994، ط3، ج، ص .

2 - سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، بيروت، ط1، 1992م، ص15.

3 – صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة أدبيات، مكتبة لبتان، القاهرة، 1996م، ط1، ص297.

4 – عبد الرحمن أبو عليّ، عناصر أوّليّة لمقاربة سيميولوجية، مجلّة العرب والفكر.

5 – الأزهر الزناد، نسيج النصّ، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، الدار البيضاء، 1993م، ص14.

6 – المرجع نفسه، ص15.

7- Halliday (M.A.K) et Ruqaya Hasan، Language context and text، aspevts of Language in Social Semiatic perspective، 1989، P37.

8- OX.R.Fowler، Linguistics and the Novel، First édition، London، 1985، P45.

9 – محمد الماكري، الشكل والخطاب: مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1991م، ص19.

10 – عبد الملك مرتاض، النصّ الأدبي من أين وإلى أين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م، ط1، ص18.

11 – جوليا كريستيفا، علم النصّ، ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1997م، ط2، ص29.

12 – جون لابنز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة د.عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامّة، بغداد، 1987م، ط1، ص221.

13 - جون لاينز، علم الدلالة، ترجمة محيد عبد الحليم الماشطة، جامعة البصرة، كلية الآداب، 1980م، ط1، ص119.

14 - محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، الدار البيضاء، 1992م، ط3، ص20.

(15) Beaugrand et Dressler، An Introduction to text Linguistics، London، 1984، P33.

16 - سعيد يقطين، انفتاح النصّ الروائيّ، المركز الثقافي العربيّ، بيروت، دار البيضاء، 1989م، ط1، ص17.

17 - رولان بارت، درس السيميولوجيا، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1985م، ط1، ص37.

18 - صلاح فضل، نظرية البنائيّة في النقد الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987م، ط3، ص383.

19 - جيرار جينت، مدخل لجامع النصّ، ترجمة عبد الرحمن أيوب، دار توبقال للنشر، سلسلة المعرفة الأدبيّة، 1986م، ط2، ص92.

20 - اندريه جاك ديشين، استيعاب النصوص وتأليفها، ترجمة هيثم لمع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1991م، ط1، ص15.

21 - محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعريّ استراتيجيّة التناص، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1992م، ط3، ص360.

22 - محمد بخيت (مفتي الديار المصرية)، سلّم الوصول لشرح نهاية السؤال، المطبعة

السلفية، ومكتبتها، عالم الكتب، بيروت، 1982م، ج1، ص48.

23 – ابن منظور، لسان العرب، مادة (خطب).

24 – محمد عليّ الخولي، معجم علم اللّغة النظري، مكتبة لبنان، بيروت، 1982م، ط1، ص103.

25 – إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربيّة للناشرين المتّحدين، بيروت، 1986م، ص172.

26 – رمزي البعليكي، معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين، بيروت، 1990م، ط1، ص55.

27 – إدريس حمّادي، الخطاب الشرعي وطرق استثماره، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1994م، ط1، ص21.

28 – الكفوري أبو البقاء، الكليّات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، تحقيق د.عدنان درويش محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1982م، ط2، ص194.

29 – سعيد يقطين، انفتاح النصّ الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1989م، ط1، ص9.

30 – محمد مفتاح، دينامية النصّ، تنظير وإنجاز المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1990م، ط2، ص167.

(31) Thomas Sebeak، Encyclopedic، Dictionary of Semiotics، Général، edition ، Tome2، Moutan، 1986،

.P1088

(32) تودوروف وآخرون، في أصول الخطاب النقدي الجديد، ترجمة أحمد المدني، 1997م، ص105.

(33) Van Dijk، Text and context، Longman، London، 1977، P17.

34 -ابن منظور، لسان العربن ج .

35 -الزمخشري أبو القاسم، أساس البلاغة، ط1، دار الفكر، بيروت، 1979م، ص .

36 -الشافعي أبو عبد الله، الرسالة، ط1، تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ص58.

37 -رمزي البعليكي، معجم المصطلحات اللغوية، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1990م، ص119.

38 -محمد علي الخولي، معجم علم اللغة النظري، ط1، مكتبة لبنان، بيروت، 1982م، ص57.

39 -عدنان بن ذريل، اللغة والدلالة، آراء ونظريات، ط1، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، 1981.

40 -جون لايتر، علم الدلالة، ترجمة محمد عبد الحليم الماشطة وآخرون، جامعة البصرة، كلية الآداب، 1980م، ص80.

41 - Firth University Press، London، 4th édition 1964، P4.

42 -غراهام هو، الأسلوب والأسلوبية، ترجمة كاظم سعد الدين، ط1، دار الشؤون

الثقافية، بغداد، 1986م، ص52.

43 -محمد مفتاح، دينامية النصّ، ص20.

44 -المرجع نفسه، ص22.

45 -ارجع لكتب التفسير.

46 -سورة البقرة: الآية 29.

47 -سورة البقرة: الآية 30.

48 -سورة البقرة: الآية 38.

49 -سورة البقرة: الآية 40.

50 -محمد مفتاح، تحليل الخطاب استراتيجية التناص، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1992م، ص42.

51 -سورة البقرة: الآية 285.

52 -سيد قطب، في ظلال القرآن، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1985م، ج1، ص35.

53 -السّيوطي جلال الدّين، الإتقان في علوم القرآن، ط3، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1995م، ج1، ص112.

54 -الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ط3، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، 1980م، ج1، ص272

55- Brown Gillian et Youl George Discause Analysis، Cambridge University، Press، 7th edition، 1988.

56 -صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ط1، سلسلة أدبيات، مكتبة لبنان،

القاهرة، 1996م، ص303.

57 -سورة الفاتحة، الآية 6.

58 -ارجع لـ: أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق د/زكريا عبد المجيد التوتي ود/أحمد النجولي الجميل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1313هـ1993-م، ج1، ص154.

محمد مرسي عامر، ط 2، دار المصحف، مطبعة عبد الرحمن محمد، 1397م، 1977م، ج1، ص22.

59 -سورة البقرة: الآيات 1 إلى 8.

60 -سورة البقرة: الآية 8.

61 - سورة البقرة: الآية 283.

62 -سورة البقرة: الآية 285.

63 -سورة البقرة: الآية 283.

64 -سيد قطب، في ظلال القرآن، ج1، ص339.